بسم الله الرحمن الرحيم

النظام السياسي في ديار الإسلام

ارتبط الإسلام السياسي في أذهاننا منذ الصغر بأحداث السيرة العطرة والتاريخ الإسلامي، بدلاً من الارتباط بالمفاهيم والقيم السياسية التي أوجبها علينا الإسلام، مثل الشورى والتعددية السياسية والإخاء والمساواة العامة والحرية السياسية. وساعد على ذلك الارتباط وجود الاستعمار وأهدافه في وأد المفاهيم السياسية الإسلامية المستندة على منظومة الشورى في الكتاب والسنة، وقبل الاستعمار كان هناك الإرهاب السياسي الذي ساد حياة المسلمين زماناً طويلاً غيب فيه التطبيق لتلك المفاهيم السياسية، زائداً كم كبير من التراث الصوفي الذي يميل لتمجيد الإنجاز الفردي. وعليه بدلاً من العمل على دراسة وتطبيق المفاهيم السياسية التي دافع عنها أولئك الأبطال، انطبع في أذهاننا أن واجبنا يكمن في إيجاد مسرح مشابه لمسرح أحداث السيرة العطرة، ومن ثم محاكاة تلك الأحداث دون وعي سياسي، على اعتبار أن هذا هو الواجب، مستندين على تفسير خاطئ للحديث الشريف [[من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ....]] دون ملاحظة أنه طوال فترة السيرة العطرة والخلافة الراشدة إلى النصف الأول من خلافة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، لم يحدث أن قام صحابي بتطبيق القانون بيده وإنما كان القرار دوماً بيد الرسول صلى الله عليه وسلم أو الخليفة المبايع من المسلمين أو الأمير المكلف بالمهمة، مما جعل منظومة الأمر هي المسيطرة سياسياً على كل مجتمعات المسلمين، وفي المرة الوحيدة التي حدث فيها اتخاذ قرار خارج المنظومة، كان بيد المشركين وذلك حين رفض المشركون انضمام أبو بصير للرسول صلى الله عليه وسلم بحسب اتفاقية الحديبيه، التي جاء فيها أن يقوم الرسول بإرجاع كل من يهاجر إليه دون موافقة أهله، فأقام أبو بصير بالساحل وجمع من هو على حاله وقاموا بمهاجمة قوافل قريش، مما أضطر قريش للتنازل عن هذا الشرط.

إن منظومة الأمر في الإسلام هي ما أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين فرضها، والعمل على إنفاذها، لأن الهداية بيد الله سبحانه وتعالى [[**إِنَّكَ**

لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ]][1]، وذلك واضح من صحيفة المدينة التي كتبها الرسول صلى الله عليه وسلم، في عهد منه لأهل المدينة ومن ضمنهم أهل الأديان الأخرى فقد ورد في الصحيفة [[يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يؤتغ – يهلك – إلا نفسه وأهل بيته]] ويستمر الكتاب لباقي بيوت اليهود إلى أن يأتي للفقرة [[وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم]] [ابن هشام ط البابي ١٩٣٦م ج٢ ص١٤٩-١٥٠] وورد أيضاً في نفس الصحيفة موجها الخطاب للمشركين بالمدينة [[وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن]] وهذا دليل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ألزم أهل المدينة بالأمر [سلطته] ولم يلزمهم بالدين، ومعلوم أن الخلفاء الراشدين لم يجبروا أهل الأمصار المفتوحة على الدخول في الإسلام وإنما فقط الخضوع للحكم القائم على منظومة الأمر الإسلامية، وهي منظومة إعجازية جعلت الإسلام ينتشر كبرق متلاحق، فبلغ بتلك المفاهيم السياسية الرائعة في خمسين عاماً ما لم تبلغه الإمبراطورية الرومانية في ثمانمائة عام، وجعل معظم البلاد التي دخلها في تلك الفترة عربية إلى اليوم. وإن المخالفة لهذه المنظومة لها أبعاد خطيرة على الإسلام والمسلمين، من مثل الفتنة الكبرى التي هدمت نظام الأمر الإسلامي وأبدلته بنظام لم يورثنا إلا الهزيمة والضياع، و يتعامل البعض اليوم مع بعض مسببيها في تقديس لغير مقدس بل مخالف لما أوجب على المسلمين.

ولذلك فإن البحث عن مسرح للأحداث يتيح فقط محاكاة أبطال السيرة العطرة، دون تطبيق للمفاهيم السياسية التي فرضها الإسلام من الشورى والتعددية والأحكام والقيم، والاستناد إلى العاطفة الجياشة للإسلام، يجعلنا كمن يسقي الزرع بالسماد، وأخسر من وقع في هذا الفخ المدبر بعناية هم المتعنتون الذين فقدوا الكفة الثانية لميزان قبول العمل في الإسلام، وهي موافقة الكتاب والسنة، لأن التعنت

---

[1]/ سورة القصص الآية ٥٦

على ما جاء به الكتاب والسنة يجعل من الإسلام السياسي وسيلة بيد أصحاب الغرض يستدعونه فترات ضعفهم ليقدم التضحية كسلاح فاعل ودرع واقي في المواجهة، فإن كان التمكين واستتب لهم الأمر كان الإسلام أول الضحايا، وذلك واضح من خط سير حركة الإسلام السياسي في الواقع المعاش مما ضيع القضية برمتها، لأن الحركة في الإسلام السياسي ليست تدريباً للرياضة البدنية تعتمد على حركات مدروسة ومبرمجة سلفاً، وإنما حركة حرة بنص آية الشورى لتثبيت مفاهيم دينية وسياسية أتى بها الإسلام وتؤدى إلى نتائج محسوسة وعد بها المولى سبحانه وتعالى المؤمنين مثل الحرية قال تعالى: [[**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**]][1]، وكذلك التثبيت والنصر قال تعالى: [[**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**]][2]، ولا أدري كيف ندعي أننا ننصر الله ونحن نحارب مفاهيمه السياسية التي أوجبها من مثل الشورى والتعددية والقيم، مما أصاب الناس بحول فكري صارت معه المنابر تدعو إلى ما هو مناقض للمفاهيم السياسية الإسلامية وتصر على: إما التطبيق الكامل لما كان في ظرف مخالف – في اجتزاء وتخير للآيات والأحداث – أو أن هذا ليس من الإسلام، ناسين أو متناسين أن الله سبحانه وتعالى جعل الأمر شورى ليعمل كل أهل زمان بما يوافق زمانهم.

ومكاسب الشورى وفي بيان عملي ظفر بها المسلمون إبان السيرة العطرة وتاريخ الراشدين، مما خلف إنجازاً غير مسبوق أقله تقبل أهل البلاد المفتوحة ليس للدين الجديد وحده وإنما للغة وقومية وثقافة الفاتحين، وذلك لأن الإسلام دين متكامل حمل البشري للدنيا ويحمل البشري للآخرة، ويزيل التشوهات النفسية التي يسببها الاستبداد وهو ما رزح تحته أهل البلاد المفتوحة قبل الإسلام، وهذا ما عناه الفيلسوف كارليل في كتابه [الأبطال] [[وظني أنه لو أتيح للعرب بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيباً في طاعتهم مقدار ما ناله في ثوبه المرقع بيده، فكذلك تكون العظمة وكذا تكون الأبطال]] وكذلك قول البروفسير

---

[1]/ سورة الأعراف الآية ١٥٧

[2]/ سورة محمد الآية ٧

كاردي فو في كتابه [المحمدية] [[إن شعور المساواة والإخاء الذي أسسه محمد بين أعضاء الكتلة الإسلامية كان يطبق عملياً حتى على النبي نفسه]] القولين من كتاب الشيخ كشك [حديث من القلب] في هذه الأقوال أرجع هؤلاء الغربيون النجاح السياسي الذي ناله الرسول صلى الله عليه وسلم، لمنهج سياسي علمي يستند على المساواة والإخاء جاهلين أو متجاهلين لمصدر هذا المنهج السياسي وهي المفاهيم السياسية التي أتى بها الوحي، فطبقها الرسول صلى الله عليه وسلم ودافع عنها بحياته، وأورثها بيضاء نقية للخلافة الراشدة التي لم تجعل يوماً من الجهاد مصيدة للغير أو سبيل كسب لنصر أو شهادة خال من الهدف وإنما كان الجهاد في زمانهم مشرط جراح حمل العافية وفتح الطريق أمام الشعوب المقهورة وقتها من ملوك الفرس وأباطرة الروم، ليكونوا في حمى نظام الأمر الإسلامي، من أسلم منهم ومن بقي على دينه حيث الكرامة الموفورة للجميع. وقصة القبطي مع ابن عمر بن العاص شاهدة، وقصة المسيحي الذي شكاه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إلى قاضيه فحكم القاضي للمسيحي تشهد على سمو تلك المفاهيم السياسية التي أتى بها الإسلام وطبقها الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين على أنفسهم أولاً، ومن أوكدها الشورى والتعددية السياسية والقيم السياسية. والقيم في الإسلام فروض وليست محسنات مما ولد أول جمهورية دستورية في التاريخ، إمامها منتخب من الجمهور ومحكوم بقيم ملزمة لا تفرق بينه وبين الجمهور في الحقوق العامة، وعليه يمكن القول إن شعار الثورة الفرنسية حرية إخاء مساواة، مفروض في الإسلام بآيات فارضة قال تعالى: [[**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**]][1].. [[**إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**]][2].. [[**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ**]][3].. [[**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**]][4]. وكان رد المصطفي صلى الله عليه وسلم لمن يسأله من شيوخ القبائل: ما لي لو أسلمت ؟ هو: لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم، فللإسلام مفاهيم دينية وسياسية لم تترك ثغرة بوعود لمنافع دنيوية لمن يسلم، وقالها الرسول صلى الله عليه وسلم بينة [لتكون كلمة الله هي العليا] وكلمة

[1]/ سورة الأعراف الآية ١٥٧
٢/ سورة الحجرات الآية ١٠.
[3]/ سورة النحل الآية ٩٠
[1]/ سورة الشورى الآية ٣٨.

الله معلومة وهي ما جاء به الكتاب والسنة من التوحيد والعبادات والشورى وإقرار التعددية السياسية والقيم والأحكام.

والآن أقولها إن المطلوب من المسلم هو الانصياع التام لأمر الله سبحانه وتعالى الذي أنعم علينا بالهداية لدينه المشفوع بنظام بديع لإدارة المجتمع [نظام الشورى] وأن محاولة إعادة تشخيص أحداث السيرة العطرة وفترة الخلافة الراشدة، والتقيد بفقه مستنبط من الحراك السياسي في عهدهم، ما هو إلا مزايدة من الجهلاء وأصحاب الغرض في الاستبداد على خلق الله، فلن تكون كلمة الله هي العليا إلا عن طريق منظومة الأمر الإسلامية التي أوجبت [الشورى والتعددية والأحكام والقيم] وأن المخالفة لها أبعاد دينية وسياسية مريعة، ووضعت لها صفات وأحكام مستحقة كالبغي والهلاك والخروج من الملة بنص الآية في أول المقال و الأحاديث النبوية، قال صلى الله عليه وسلم [من عمل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد] ورد هالك. وعلى المتعنتين – في الدنيا قبل الآخرة – تحمل النتائج من هزيمة وحياة نكدة وكرامة مهدرة وشخصية مشوهة وكل صنوف الأغلال، والواقع المعاش يشهد على فشل المخالفين.

وأخطر ما تقدم، هو ما نجني عاقبة أمره في زماننا هذا، وهو إطلاق غير المفوضين فتاوى في شأن الأمر [شأن إدارة المجتمع وسلطته] مستندين على اجتزاء نصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية، في مزايدة واضحة للسيطرة والهيمنة على الإسلام ومن ثم على الخلق، وهذا استلاب واضح لحق الجمهور الذي فوضه الله سبحانه وتعالى لإدارة أمره [سلطته] بنص آية الشورى، وعليه لا يحق لأحد الإفتاء في شأن سياسي مستنداً على نص، لأنه حتماً سيجد نفسه في موضع نقد لقرارات نبوية، ويجعل القرآن الحكيم متناقضاً، إذ أن من المستحيل موافقة كل النصوص لأن القرآن الكريم شامل ومتدرج أمر بالقتال وأمر بالجنوح للسلم وترك القرار للمفوض بالأمر [السلطة]، وأقرب مثل على ذلك ما حدث في الحديبيه في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة،إذ قرر الرسول صلى الله عليه وسلم قبول الصلح المعروض عليه من قريش، بعد نزول سورة الأنفال التي دعت لقتال المشركين بأربع سنوات ، في خطوة سياسية متقدمة، وأقول متقدمة لأن هذا

الصلح من وجهة النظر السياسية البحتة أو المجردة فيه تجاوز للحد من قبل المشركين وتضيع لفرصة من قبل المسلمين للأسباب التالية:

١- شرعية قتال المشركين ثابتة بنص الكتاب.

٢- تفوق المسلمين في العددية والعتاد.

٣- مكة كانت عاصمة أبناء معد بن عدنان الدينية وإلى حد ما السياسية وفي أخذها توفير الكثير من الوقت للدعوة، وكان معظم العرب ينتظرون نتيجة حربه مع قريش.

٤- المسلمون هم الموتورون في أحد آخر معركة فعلية بينهم.

٥- منازلهم التي أخرجوا منها على مرمي البصر.

٦- أموالهم التي اغتصبت منهم على مرمي حجر.

٧- الرؤيا التي بشر بها الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين والتي رأى فيها أنه يدخل مكة آمناً لا يخاف [ابن هشام] جعلت المسلمين مهيئين لدخولها على أية حال.

٨- الصلف الذي لم يكن في محله [سياسياً] من قريش حيث رفض مفاوضها كتابة بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله ومطالبته بإرجاع من يهاجر للرسول صلى الله عليه وسلم دون موافقة أهله.

٩- بيت الله الحرام وحوله الأصنام تعبد من دون الله، وحانت الفرصة لتطهيره.

١٠- رفض أهل مكة السماح للرسول صلى الله عليه وسلم الدخول لمكة معتمراً، في موقف انتحاري – لفارق القوة بينهم – حتى لا تحدث العرب عنهم إنه دخلها عنوة [ابن هشام]، والشأن هنا مشترك إذ أن العرب ستتحدث عن المسلمين أنهم ردوا عن أداء العمرة قسراً وفي هذا تقليل مهابة.

على الرغم من كل هذه الأسباب وغيرها والمواتية سياسياً لدخول مكة حرباً عقد الرسول صلى الله عليه وسلم صلحاً مدته عشر سنوات هو صلح

الحديبيه. ولكن للسياسة البحتة شأن، وللإسلام شأن سياسي أعلى، فقد خسرت قريش بهذا الصلح حربها نهائياً. ولو لا الحماقة والتهور غير المبصر من قلة من المشركين في فتح مكة بعد ذلك بسنتين، لسقطت مكة دون إراقة نقطة دم واحدة نتيجة للتحرك السياسي في الحديبية، الذي لم يكن للسيف فيه أي نصيب، في درس بليغ للمسلمين فهذه مكة حيث أول بيت وضع للناس وحرم الله سبحانه وتعالى تركت تموج في الكفر بقرار سياسي من المفوض بالأمر من الله سبحانه وتعالى بنص الآية [١٨] من سورة الجاثية: [[**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ..**]]، ثم نزلت الآيات تقر ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم وتسمي الصلح الذي حدث فتحاً مبينا، قال تعالى: [[**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً**]][١]. وفي هذا درس للمسلمين بأن يضعوا الأحوال السياسية في المحيط الإقليمي والدولي نصب أعينهم، ويعطوا الفرصة للقوة الذاتية للإسلام، فأرض أبناء معد بن عدنان كانت يومها تموج بالشرك والروم يتربصون بعد انتصارهم على الفرس على من يفرض سيطرته على المنطقة العربية. وإقليميا كانت هناك هوازن وثقيف سوف لن تسكتا على أخذ مكة عنوة، بواسطة جيش عدد الناس فيه هم أهل المدينة، وأكبر من ذلك كله معرفة القوة الذاتية للإسلام، إن تركت دون عوائق الغلاة والمتعنتين. وفعلاً ظهر أثر كل ذلك بمرور الأيام التي لم تطل أكثر من سنتين، وتلمس المسلمون الفتح محسوساً يوماً بعد يوم في أعقاب صلح الحديبيه، وذلك واضح من رواية الزهري لابن هشام وتعقيب ابن هشام الوارد في السيرة.

" يقول الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب وأمن الناس بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر.قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أن رسول صلى الله عليه وسلم خرج إلى الحديبيه في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف " [ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٦-٣٣٧] وهذه الزيادة

[١]/ سورة الفتح الآية ١

كانت الحاجة لها واضحة، فدولياً كانت مؤته في جمادى الأولى سنة ثمان ويبدو أن سبب تحرك المسلمين فيها هو نفس سبب تحركهم لتبوك وهو الإخبار عن استعداد الروم فعاجلهم الرسول صلى الله عليه وسلم بإرسال بعث جعفر بن أبي طالب، فقد أورد ابن هشام عن الغزوة ".. ثم مضوا – المسلمون – حتى نزلوا معان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل في مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضم إليهم من لخم وجزام والقين وبلي مائة ألف منهم " [ابن هشام ص ج] وجيوش بهذه الكمية تحتاج إلى زمن طويل من الإعداد. أما إقليميا فقد تحركت ثقيف وهوازن حال فتح مكة في رمضان، فكانت حنين في شوال من العام نفسه، وأجمع المؤرخون على أن السبب في تحركهم هو فتح مكة. ومحلياً تفرغ الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود وأشتات من قبائل الحجاز، فكانت خيبر ووادي القرى وذات السلاسل والخبط وغيرها.

مما تقدم ندرك أن مستوىً راقياً من ممارسة السياسية وتحكيم العقل، قد صاحب الدعوة التي حملت الخير للناس، وفرضت قيماً سياسية تولدت عنها أول جمهورية دستورية في تاريخ البشرية، فالمساواة العامة والإخاء والحرية السياسية والشورى في السلطة، والتي يتفاخر الغرب بأنه يريد أن ينقلها إلينا مفروضة علينا، وسبق بها الإسلام الثورة الفرنسية بأحد عشر قرناً من الزمان. فهلا عدنا مستصحبين، دروس الحديبيه ومفاهيم الإسلام السياسية، فلسنا أغير على الدعوة من الرسول صلى الله عليه وسلم الذي خاض منتصراً بتلك المفاهيم بحراً متلاطماً من المشركين واليهود والمنافقين، ولم يحد عنها وهو يعلم وجود المنافقين داخل صفه، وتركنا على المحجة البيضاء، وحذرنا من الغلاة والمتعنتين من مثل ذا الخويصرة التميمي الذي قال فيه [ستكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية] [ابن الأثير ج ٢ ص ٢٧١ ط دار صادر] والحديث مروي بصيغ كثيرة كلها تحمل نفس المعنى.

وقبل الختام أقول إن هدر الشورى والتعددية والقيم السياسية للإسلام وقلبها الحرية السياسية لإعلاء القيم الأخلاقية، عبر تطبيق الأحكام في إطار نظام استبدادي،يقصي الآخر لمجرد الاختلاف في الرأي هو فعل من يخلط التبر

بالتراب، لأن الاستبداد يفكك الدولة ويفسد المجتمع، ولهذا كان الوعيد لمن يخالف المفاهيم السياسية شديداً، ويفوق وعيد من يخالف القيم الأخلاقية، قال تعالى واصفاً بني إسرائيل بالبغي لمخالفتهم البينات التي أنزلت عليهم في شأن الأمر [السلطة والحكم] [[**وَآتَيْنَاهُم بَيِّنَاتٍ مِّنَ ٱلأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوۤاْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**]][1] وهي نفس الصفة التي وصف بها الله سبحانه وتعالى المتفرقين في الدين [[**وَمَا تَفَرَّقُوۤاْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**]][2]. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم [[من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد]] ورد: هالك [لسان العرب – مادة ردى]

وختاماً أقول إن مجتمعات المسلمين اليوم في حوجه حقيقية لنظام الشورى الإسلامي، لأن من ترك شيئاً من الشرع أحوجه الله إليه، وأن الاستناد على فتاوى السابقين في السياسية، لا يجوز لأن الله سبحانه وتعالى حسم الأمر بآية الشورى التي فتحت الباب أمام التدليل والتحليل والأخذ والرد للوصول للرأي المتين وهو ما يعرف في زماننا هذا بالعقل الجمعي، وهو عند المسلمين لا يمكن منافسته لأنه مدعوم بحكمة الكتاب والسنة، إن هم عملوا بالشورى، وكما أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال [خذوا عني مناسككم] وقال [صلوا كما رأيتموني أصلي] ولم يقل حاربوا كما رأيتموني أحارب أو عاهدوا كما رأيتموني أعاهد، فقد جعل الله سبحانه وتعالى الأمر شورى بين المسلمين، ليعمل كل أهل زمان بما يوافق زمانهم فهلا انتبهنا.

والله ولي التوفيق

محمد مكي عثمان أزرق

www.islamshoora.com

---

[1]/ سورة الجاثية الآية ١٧

[2]/ سورة الشورى الآية ١٤